انفتاحيّة الدّعوة الإسلاميّة : واقع .. وآفاق
(إعادة قراءة في ضوء الكتاب والسنّة)

محمّد بن داود سماروه*

ملخص البحث

طبيعة الدّعوة الإسلاميّة للكافّة، دون انغلاق بفئة، أو انحصار بنخبة، لا تقتصر على الصّفوة من أهل التدين. فرسالة الإسلام لم تكن كسائر الرّسالات والدّعوات محدودة بمكان، بل هي دعوة شاملة لكلّ الأمكنة، ويهدف هذا البحث إلى معرفة منطلقات واقع الانفتاحيّة الدّعويّة وآفاقها في عصر يتطلّب الانفتاح المتأطّر في ثمان معطيات، وقد انتهج الباحث في هذا البحث النهج المكتبي، وتوصّل الباحث في ثناياه إلى مايلي:1-انتشار الإسلام بقوّة مبادئه وفطريّة هذه المبادئ. 2-معظم أنحاء العالم الإسلامي لم يصلها الفتح (الغزو) الإسلامي، وإنّما امتدّ وانتشر في العالم بالصّورة الحقيقيّة للنماذج التي تثير الاقتداء.

บทคัดย่อ

รูปแบบที่เป็นธรรมชาติของการเผยแพร่อิสลามนั้นถือเป็นหน้าที่ที่ทุกๆคนต้องแบกรับร่วมกัน,โดยไม่เบนเบี่ยงให้กับฝ่ายใดฝ่ายหนึ่งหรือเฉพาะกลุ่มใดกลุ่มหนึ่งหรือเจาะจงเฉพาะนักการศาสนา อนึ่งบัญญัติแห่งอิสลามจึงไม่เหมือนกับบัญญัติของศาสนาหรือการเผยแผ่ใดๆในโลก ที่กำหนดขอบเขตหรือเจาะจงสถานที่เป็นหลักในการเผยแผ่ หากแต่บัญญัติอิสลามเป็นการเผยแผ่ที่ครอบคลุ่มไปทั่วทุกหนทุกแห่งโดยไม่คำนึงถึงขอบเขตหรือสถานที่ งานเขียนฉบับนี้จัดทำขึ้นเพื่อชี้ให้เห็นถึงความจริงและหลักการในการเผยแผ่อิสลามสู่ประชาชาติในยุคสมัยนี้ที่จะต้องอาศัยหลักการทั้งแปด ซึ่งผู้เขียนได้ทำการศึกษาข้อมูลจากหนังสืออ้างอิงถึงเรื่องนี้และได้ข้อสรุปดังนี้: 1. การเผยแผ่อิสลามต้องกระทำอย่างจริงจังและให้เป็นไปในรูปแบบที่เป็นธรรมชาติของอิสลาม 2.ประเทศมุสลิมส่วนใหญ่ไม่ได้เกิดขึ้นด้วยรูปแบบการมาเยือนของอิสลาม (การสู้รบ), หากแต่เกิดขึ้นมาและเผยแผ่ไปยังประชาชาติด้วยรูปลักษณ์ที่แท้จริงและโดดเด่นและเป็นตัวอย่างที่เหมาะแก่การเป็นแบบอย่าง

مقدمة

إنّ سنّة الدّعوة والإعلام بتقوى الملك العلاّم، مضافاً إليها الامتنان بإنعام ذي الجلال والإكرام، هي بذل الجهد بتوسّل الطّاقة الكامنة لولوج الأبواب المغلقة (الموصدة) بإقدام واقتحام، يقول تعالى تنويهاً لعباده بذكر نعمه عليهم:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ

* ماجستير في الدعوة الإسلامية محاضر بقسم أصول الدّين – كليّة الدّراسات الإسلاميّة جامعة جالا الإسلامية.

فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾.

(المائدة:20–23)

فالمطلوب للعمليّة الدّعويّة الانفتاحيّة هو (دخول الأبواب المغلقة)، كلّ الأبواب المغلقة في كلّ ساحة وباحة.. ومكان وميدان، إذ الغلبة للمؤمنين بالإقدام والاقتحام جمعًا بعنصر التوكّل على الله.

بيد أنّ قصور الامتداد الحضاري تبعًا لقصور الفهم هو علّة التّغييب الحضاري، وبطول الأمد صار التّغييب الحضاري والفكري تغيّباً ذاتيًا اختياريًّا على حساب ما كان من قبل ضروريًّا، ثمّ أصبح نهجًا يبحث له عن أصول في الشّرع من نصّ الكتاب، أو رواية سنة، أو واقع سيرة، أو تاريخ أمة من أمم الدّعوة السّالفة ليُصبَغ بالشرعيّة الدينيّة، على نحو قوله ﷻ في قصّة أهل الكهف:

﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ۝١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ۝١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ۝١٢ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾

(الكهف: 10 – 13)

أو قوله تعالى في تصريح إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴾

(مريم: 48)

أو قوله عليه السلام الآخر عند إعلانه:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾

(الصّافات: 99)

وما يكون ذلك من هؤلاء الرّسل ودعاة الأمم السّالفة إلاّ بعد المبادرة بالدّعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ...، ثمّ من بعد ذلك إذا ما أوقر المدعوون الآذان عن سماع الحق، وأغلقوا العقول عن التفكّر فيه والاقتناع به، وأوصدوا القلوب عن القبول، وأبوا الحق الذي بُذل، والخير الذي أُرشد إليه، والمعروف الذي أُمر به، لم يبق للدّعاة إلاّ الاعتزال والهجر والفرار بالبقيّة في النفس والنّاس، كما حكاه ﷻ عن نبيّه موسى عليه السلام:

﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾

(الدخان:17-21)

أمّا قبل البذل والتبيين والسّعي إلى التّمكين والدّعوة إلى الدّين؛ فلا يبادر بالانطواء والاعتزال والفرار.

إنّ طبيعة الدّعوة الإسلاميّة للكافّة، دون انغلاق بفئة، أو انحصار بنخبة، لا تقتصر على الصّفوة من أهل التدين. فكتاب الله تعالى من أوّل أمره نداءه إلى جماهير الناس يدعوهم لعبادة الله والاستجابة لدينه الحق ورسالته الخاتمة:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

(البقرة: 21)

ورسول الإسلام ﷺ إمام دعاته ما أرسل إلاّ للنّاس أجمعين، أخبره ﷻ عنه:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَڪۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

(سبأ: 28)

ويُعلن ﷺ ذلك عن نفسه، كما في قوله تعالى:

﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾

(الأعراف: 158)

وقوله:

﴿ قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۟ لَكُمۡ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الحج: 49)

ومن كُلّف بالتبليغ والتبيين، أُمر أن ينطلق ببيانه للحق إلى الناس، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً‌ۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾

(آل عمران: 187)

فرسالة الإسلام لم تكن كسائر الرّسالات والدّعوات محدودة بمكان، بل هي دعوة شاملة لكلّ الأمكنة.

حيث وُجد النّاس يجب أن يصل الخطاب الدّعوي يُصلح أحوالهم، ويُصبغ حياهم بصبغة الإسلام، فما من مكان إلاّ ويجب أن يجئ البلاغ المبين، ويبلغه أمر الله ما بلغ الليل والنّهار، قال رسول الله ﷺ:

"ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنّهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدّين بعزّ عزيز، أو بذلّ ذليل، عزّاً يعزّ الله به الإسلام، وذلاًّ يذلّ الله به الكفر"

(أحمد، **المسند**، مسند الشاميين، رقم: 16344) عن تميم الدّاري

كما بشّر رسول الله ﷺ :

" إنّ الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإنّ مُلكَ أمّتي سيبلغُ ما زُوِيَ لي منها"

(مسلم، **صحيح**، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم: 2889) عن ثوبان.

بيد أنّ ثمّة استثناءات مرحليّة. فالانفتاحية بعامّة خصائصها تمثّل الفكرة الصّائبة، في الدّعوة إلى الله، الّتي سلكها الرّسل، وهي التي تعكس بحق الواقع الإسلامي -والله أعلم- خاصّة مع مطلع الألفيّة الثالثة، في خضمّ العولمة، حيث تدفّق المعلومات وتنافس الثقافات والحضارات، تتأكّد أهميّة الانفتاحيّة، وبات من الضّرورة بمكان التّنويه بها تحدّثاً وتحديثاً ...

منطلقات واقع الانفتاحيّة وآفاقها:

اشتملت رسالة النبيّ ﷺ الإنسان في كلّ أبعاده ومواقعه ومشاعره وأفكاره ومنطلقاته، بمعايشة كلّ مفرداته الذاتيّة، واستيعاب كلّ ظروفه الموضوعيّة، والتعمّق في كلّ إحساساته الروحيّة ومواقعه الفكريّة. وهكذا كان النبيّ محمَّد ﷺ إنسان الرّحمة في انفتاحه على كلّ الإنسان، ونبيّ الوعي في إطلالته على الواقع كلّه، ورسول الحكمة في نظرته إلى السّاحة كلّها بكلّ مفرداتها الصغيرة والكبيرة، وظروفها الموضوعيّة القريبة والبعيدة، من خلال فهمٍ دقيقٍ للإنسان في تقلّباته وتطلّعاته ونقاط ضعفه وقوّته، الأمر الذي جعل له القدرة على الاستيعابٍ في مراحله الدّعويّة، وتلك هي المسألة الرساليّة في مهمّته. (ابن القيّم الجوزيّة، 2000، 1: 84).

إنّ ما نحاول أن نتلمّسه بشكل سريع عبر معطيات عدّة تالية من منطلقات الكتاب والسّنة تمثّل واقع انفتاحيّة الدّعوة الإسلاميّة، متضمّنة في ثناياها مقوّمات الانطلاقة بمثابة آفاق.

* المعطيات الأولى (المراحل الدّعويّة) :

انطلق النبيّ محمَّد ﷺ في دعوته بالطريقة السرّية في مدى ثلاث سنوات، فكان يدعو الأفراد بشكل هادئ، حتى دخل في الإسلام جماعة بلغوا أربعين رجلاً، وكان أصحاب رسول اللّه ﷺ إذا صلّوا ذهبوا في الشعاب ليستخفوا بصلاتهم من قومهم.

والنبيّ ﷺ إنّما أراد بذلك أن يبني القاعدة الإسلاميّة للدّعوة في ظروف هادئة من خلال تقدير الأوضاع الصّعبة التي تحيط بالواقع هناك، لأنَّ الصّدمة الأولى قد تخلق ردود فعل لا تتيح للنّاس، ولا سيّما المستضعفين منهم، أن يستجيبوا للدّعوة، وبذلك تكون السرّية في الدعوة الأولى حركة في اتجاه استيعاب أكبر قدر ممكن من النّاس لينطلقوا مع الرّسول في بناء المجتمع الإسلامي الأوّل في مكة، لتهيئة الأجواء للمواجهة في المرحلة القادمة، بعد أن يكونوا قد استوعبوا المفاهيم الإيمانية في عقولهم، وعاشوها في قلوبهم، ما يقوّي موقف استيعاب التحدي المضادّ من قبل المشركين للإسلام والمسلمين.

ولكنَّ العمل السرّي يبقى مرحلةً خاضعة للظروف الموضوعيّة المحيطة بالسّاحة، التي قد تمثّل مرحلة التّحضير التي لا بُدَّ أن تنفتح على مرحلة جديدة تصدم الواقع، الأمر الذي يفرض الدخول في جدال وصراع يؤدّي بالدعاة إلى اللّه إلى المزيد من آلام المعاناة ومشكلات المواجهة. (المباركفوري، 1418 : 88-91).

ثمَّ أمره اللّه ﷻ أن يصدع بما جاء منه، وأن يجاهر النّاس بأمره، وأن يدعو إليه، وذلك في قوله تعالى:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(الحجر:94)

وقال تعالى:

﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

(الحجر: 89).

وأثار جهر الدّعوة الكثير من الضّوضاء الفكريّة والشعوريّة في أجواء قريش بالذات لاسيّما بعد أن بدأ النبيّ ﷺ يتحدّى الأصنام بفكرة التوحيد، ويسفه الذهنيّة القرشيّة الخاضعة للوثنيّة، وبدأت قريش بالعروض الإغرائية من موقع القوّة الحميمة، ورفَضَها رسول الله ﷺ من موقع القوّة الرسالية، وكان الاضطهاد والتعذيب والحصار، وبرز الرّسول ﷺ في شخصيّته القويّة الهادئة لا يتراجع ولا يلين ولا يقاطع، بل يبقى منفتحاً على الجميع يدعوهم إلى سماع آيات اللّه ﷻ، لأنَّ المسألة عنده هي أن يستمعوا إليه، بصرف النظر عمّا إذا كان ذلك يؤدّي إلى إيمانهم أم لا ؟ فقد كان يطمح إلى الحصول على احترامهم لرسالته من خلال آيات اللّه ﷻ التي تثير في عقولهم ومشاعرهم المزيج من الإعجاب والدهشة والتفكير، ولكنَّهم كانوا يعيشون "عقدة الرّفض"، لأنَّ هذه الدّعوة الجديدة تمثّل ثورة على الأفكار والعادات والتقاليد والامتيازات، ما يقلب أوضاعهم رأساً على عقب... (المباركفوري، 1418: 92-108).

واشتدّ الضّغط على المسلمين المستضعفين، وقام النبيّ ﷺ بتهجير البعض منهم ممّن لا يملك الصّبر على الاضطهاد والتعذيب خوفاً من الفتنة في دينه، وأبقى البعض الآخر... وكان يقوم بزيارة كلّ الوفود التي تأتي إلى مكة ليبلّغهم رسالة اللّه ﷻ، وليخفّف من تأثير الدّعاية القرشية ضدّه، حتى يحمل صورة الموقف من جوانبها كافة، ليستقيم لهم التوازن في الحكم، فلا تتغلب لديهم الصورة المشوهة للرسالة وللرسول من خلال قريش.

وهكذا أراد رسول اللّه ﷺ من هذا النّشاط الرّسالي في خطّ الدّعوة في هذه الفترة، أن يستفيد من موقع مكّة الذي يجمع في خصوصيّته أكثر من عنوان يجتذب النّاس إليها، في المسألة الدينية والاقتصادية والثقافية ونحوها، ليختصر الجهد الذي قد يحتاج إلى بذله في الوصول إلى هؤلاء النّاس في بلدانهم المتنوعة.

*** المعطيات الثانية (بين أسلوب الرفق ومنطق المواجهة):**

لم يؤذن للنبيّ ﷺ بالقتال في المرحلة المكيّة، ولم يستجب للإلحاح المتواصل من المسلمين الأقوياء للردّ على العُدوان، لأنَّ المصلحة الرّسالية كانت تفرض عليه أن يحتوي عقول النّاس ويدخل إلى قلوبهم من موقع الرّفق الهادئ المتوازن في أكثر الأساليب إنسانية، بحيث لا مجال في حركة الدّعوة إلاّ للكلمة الطيّبة والأسلوب الحكيم والنظرة الحانية واللغة الحلوة، لأنَّ مهمّة

الدّعوة أن تقتحم على النّاس أفكارهم لا أن تضغط عليهم في أوضاعهم، وذلك من خلال ما تحاوله من الحصول على إيمان النّاس في وعيهم الفكري والرّوحي لفكر الدّعوة وروحيّتها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنَّ العنف في المراحل الأولى للدّعوة يشغل النّاس الأقربين والأبعدين بمفردات الصّراع الدّامي في حركة الفعل وردّ الفعل، ما يجعل التركيز — لا سيّما في مجتمع كالمجتمع الجاهلي — حول قضايا الصّراع، لا قضايا الدّعوة.

*** المعطيات الثالثة (القناعات من موقع الفكر):**

لقد طرح رسول الله ﷺ فكر الإسلام من موقع الإيحاء بأنّه يمثّل الحقيقة التي تفرض نفسها على الفكر من دون حاجة إلى أيّ وسيلة من وسائل الضغط، ما يمنح الإنسان الذي يحترم نفسه القناعة بأنَّ النبيّ ﷺ يحترم فكره ويريد له أن يصل إلى القناعات من موقع الفكر والتأمّل والحوار مع الدّعوة الجديدة التي تطرح كلّ شيء للحوار، حتّى في القضايا التي تمثّل الأساس في مسألة الدّعوة على مستوى العقيدة، فقد اعتبرها خاضعة للجدال، وأراد له أن يكون بالتي هي أحسن في نطاق الكلمة الأحسن.

وهذا ما لاحظناه في الآيات التالية في قوله تعالى:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾

(البقرة : 256)

وقوله تعالى:

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

(يونس: 99)

وقوله تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(الكهف:29)

وقوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ... ﴾

(النحل: 125)

كما نلاحظ أنَّ القرآن الكريم قد طالب النبيّ ﷺ — والدّعاة من بعده — التحلّي بالرّوح الإنسانية التي لا بُدَّ أن يعيشها رسول الله ﷺ أو الدّاعية، وجوهرها أنَّ الله ﷻ لم يجعل له السيطرة الضاغطة على النّاس في مسألة الدعوة:

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾

(الغاشية: 21 -22)

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

(ق: 45)

وربَّما كان التعبير عن الدّعوة بالتّذكير، يوحي بأنَّ هناك حقيقة كامنة في الذّات الإنسانيّة منفتحة على كلّ آفاق الإيمان باللّه واليوم الآخر، وقد لا يكتشف الإنسان هذه الحقيقة في داخل ذاته من خلال الأجواء النفسيّة الضّاغطة التي تُفرضها الأوضاع المعقّدة المحيطة به برواسبه التاريخيّة وتعقيداته الواقعيّة، ما يجعله بحاجة إلى تذكير الآخرين له بالطريقة الحسنى تهزّ مشاعره وتثير أفكاره.

*** المعطيات الرابعة (دراسة الذّات الإنسانيّة):**

درس النبيّ ﷺ واقع الإنسان دراسة عميقة، باعتبار غايته دخول مسألة الناس في الإسلام، وذلك من خلال وحي اللّه إليه، الذي يعتبر أن قضية التغيير الفكري ليست من المسائل البسيطة التي يمكن لأيّ دعوة تغييريّة على الصّعيد الفكري، أن تبلُغَها بسهولة، وهذا ما جعل الدّعوة الإسلاميّة تكتفي من الإنسان في إسلامه بإعلان الشهادتين حتى ولو لم يكن ذلك عن قناعة إيمانيّة، بل ربَّما تعمل على تقديم الإغراءات الماديّة، التي تشجّعه على ذلك.

وقد حدّثنا القرآن الكريم عن الأعراب ممّن دخلوا في الإسلام دون وعي ثقافي ـــ ديني، ولم يصلوا إلى مستوى القناعة الإيمانيّة، كما توحي الآية الكريمة:

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ... ﴾ (الحجرات: 14)

ومن الملاحظ أنَّ هذه الآية أوضحت الحدّ الفاصل بين (**الإيمان**) الذي يعبّر عن القناعة الوجدانيّة الفكريّة القلبيّة، وبين (**الإسلام**) الذي يعبّر عن الخضوع العملي للانتماء الإسلامي من حيث الالتزام بالانتماء الذاتي للمجتمع المسلم والانسجام مع ما يتطلّبه ذلك من بعض أنماط السّلوك العملي.

وعلى أيّ حال، فإنَّ الإعلان بالإسلام بمجرّد البقاء في الدّائرة الانتمائيّة الشكليّة في الكلمة والسّلوك، بعيداً عن التركيز في الدائرة الواقعيّة للفكر والرّوح والوجدان، من الضّرورة والأهميّة بمكان. و ربَّما تعود الحكمة من ذلك إلى جملة من الأمور:

أ ـــ تحييد الناس عن مجتمع الكفر والشرك :

إنّ النبيّ ﷺ كان يعمل على تحييد النّاس عن مجتمع الكفر والشرك، ليدخلوا في مجتمع الإسلام، ليضمن بذلك ابتعادهم عن الأجواء العدوانيّة التي قد تتحوّل إلى مواقع عدائيّة محاربة، واقترابهم من الأجواء الإسلاميّة التي قد تؤدّي بهم إلى الوقوف ضدّ المشركين في حالة الحرب، انطلاقاً من الأوضاع الجديدة التي تمثّل مواقعهم الحاضرة.

وقد يكون الهدف من وراء ذلك، أنَّ الإسلام يريد لهؤلاء أن يكونوا المدخل لانطلاقة أولادهم وعوائلهم نحو الارتباط بالإسلام، لأنَّ الجيل الثاني الذي ينشأ في المجتمع الإسلامي من خلال الجوّ العام، ويتحرّك من خلال الانتماء الإسلامي، سوف يدخل في عمق الحياة الاجتماعية

بفعل تلك العوامل الذاتية بشكل طبيعي جداً. كما نلاحظ ذلك في الآباء الذين دخلوا في الإسلام – نفاقا– كعبد اللّه بن أبيّ، فكان أولادهم من أشدّ النّاس إخلاصاً للإسلام وللمسلمين، كما سيرد فيما يأتي من حديث عن المعطيات السّابعة، كذا قصّة عمير بن سعد مع زوج أمّه (جلاس) ممّن تخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. (ابن هشام، د.ت،1: 519).

ب ــ احترام حقوق الإنسان في حريّة الانتماء إلى الفكر:

إنّ احترام حقوق الإنسان في حريّة الانتماء إلى الفكر الذي يقتنع به من دون ضغط نفسيّ أو جسديّ، أو على صعيد النتائج السلبية التي تؤثر سلباً على المجتمع وعلى المسيرة الإسلامية، من خلال دخول فريق كبير من النّاس الذين لا يدخلون إلى السّاحة، وهم غير صادقين في إيمانهم، ما يحوّلهم إلى قوّة مضادّة في داخل الأمّة تتمكّن من الكيد للإسلام والمسلمين من الداخل، كما حصل مع المسلمين في مجتمع المدينة، فعاثوا في الأرض فساداً، وتآمروا على المسلمين وعلى الإسلام في الحروب التي حدثت بينهم وبين المشركين أو اليهود .. !! لتصبح مشكلة المنافقين من أكثر المشكلات تعقيداً في الحياة الإسلامية، حتى أخذت حجماً كبيراً في المساحة القرآنية في الحديث عن مواقفهم السلبية في المجتمع الإسلامي.

صحيح ما حصل من ذلك ، ولكنّه لا يؤثّر تأثيراً سلبياً في المسألة من ناحية المبدأ، لأنّ المنافقين كانوا موضع رقابة دقيقة دائمة من قبل المجتمع الإسلامي، كما كانوا موضع تشهير متحرّك من قبل اللّه ﷻ في ما ينزّله من آياته، حتى أنّهم كانوا يعيشون الحذر من أن تترّل سورة تكشف سرائرهم ومخطّطاتهم وتفضح أوضاعهم، وهذا ما عبّر عنه ﷻ بقوله:

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

(التوبة: 64)

وقد كانوا في تلك المرحلة خاضعين للالتزامات الإسلامية من خلال الانتماء للإسلام، بحيث إنّهم إذا أرادوا أن يتخفّفوا من الواجبات الشرعية في الجهاد وغيره، يبادرون إلى تقديم الأعذار والمبرّرات التي تتيح لهم الانسحاب بحجة شرعيّة، وكان القرآن الكريم يلاحق بطريقته الخاصّة كلّ حيثيّات هذه الظّاهرة بقوّة، فتمكّن من فضح خلفيّاتها بوضوح، وعزل كلّ مواقعها الاجتماعيّة. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فإنّ الذين دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة لم يدخلوا في خطّ النفاق بأجمعهم، بل كان المنافقون منهم قلّة، فقد لاحظنا أنّ هؤلاء قد حسن إسلامهم عندما اندمجوا في المجتمع الإسلامي، وابتعدوا عن المؤثرات السلبية التي كانت تترك آثارها الضارّة في شخصيّاتهم من خلال أجواء الكفر والضلال التي عاشوا داخلها، وأصبحوا من خيرة المسلمين، لأنّ مشكلة الكفر– في أغلب مواقعها– هي مشكلة جهل وتخلّف وابتعاد عن الأجواء النقيّة التي تطهّر أفكارهم وقلوبهم.

*** المعطيات الخامسة (الأسلوب التثقيفي):**

فتح الأسلوب التثقيفي الذي استخدمه النبيّ ﷺ المجال لكلّ الذين يريدون أن يدخلوا في المجتمع الإسلامي، بالرغم من حال الحرب، ليطّلعوا على الثقافة الإسلامية، ليجدوا — من خلالها- الجواب على كلّ علامات الاستفهام التي تراود أفكارهم حول كلّ القضايا الإسلامية في العقيدة والتشريع والسلوك العام، فقد أراد اللّه من النبيّ ﷺ أن يجير كلّ مشرك ويمنحه الأمان إذا أراد الدّخول في المجتمع الإسلامي، حتى يأخذ وقته الكافي في الاستماع إلى آيات اللّه بكلّ تفاصيلها، فإذا استكمل ذلك كلّه، كان على النبيّ ﷺ أن يرسل معه من يبلغه مأمنه بكلّ هدوء واحترام، كقوله تعالى:

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

(التوبة: 6)

إنّنا نلاحظ في هذا الأسلوب اللفتة الروحيّة الرائعة في الإيحاء بأنّ الإسلام ليس دين الضغط والإكراه ، بل هو دين الرفق والانفتاح.

*** المعطيات السادسة (الشورى للوصول إلى النتائج الحاسمة):**

كان لاعتماد النبي ﷺ أسلوب الشورى مع المسلمين – بتوجيه من اللّه – الأثر الكبير في الوصول إلى النتائج الحاسمة في القضايا العامة، والإيحاء إليهم بأنّهم ليسوا مجرّد أتباع يستهلكون التعليمات ويخضعون لها، أو ليس لهم من الأمر شيء في تقرير قضايا الحرب والسلم، أو في تركيز أمور الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتصل بالواقع الإسلامي كلّه، لتكون المسألة بين القيادة والرعيّة مسألة أمر أو نهي، وطاعة وانقياد، من دون أن يكون لهم دور في وعي الخطّ الذي يُراد لهم أن يسيروا عليه، بل أكد أنهم شركاء في إثارة كلّ الملاحظات حول كلّ القضايا التي يبحثونها مع النبيّ ﷺ، وفي مناقشة كلّ الخطط التي يتحرّك بها للوصول إلى الأهداف الكبيرة، عندما لا تكون القضية قضية حاسمة على مستوى التشريع الذي لا يقبل المناقشة، بل تكون قضية متحرّكة على صعيد حركة التطبيق، أو التخطيط في داخل الخطوط العامّة، فلهم الحقّ في المشاركة في الرأي، والتفاعل في حركة القرارات المهمّة بين القيادة والرّعيّة، من دون أن ينتقص ذلك من شخصيّة القيادة وفاعليّتها ودورها الحاسم، وهذا هو ما توحي به الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: 15)

*** المعطيات السابعة (الاحتواء الإيجابي للتصرفات السلبية):**

واجه أسلوب الاحتواء الإيجابي الذي ركزه رسول الله ﷺ التصرّفات السلبيّة التي يقوم بها بعض المنافقين في داخل المجتمع الإسلامي، ممّن كانوا يريدون إثارة الفتنة بين المسلمين من خلال

اللعب على العناصر الانفعالية المثيرة للعصبيات القبلية أو الذاتية، وهذا ما لاحظناه في قصة عبد اللّه بن أبيّ، رأس المنافقين في المدينة، الذي زعم أنَّه إن رجع إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل، وذلك هو قوله تعالى:

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾

(المنافقون: 8)

إنّ عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبيّ أتى رسول الله ﷺ فقال: "يا رسول الله إنه بلغني أنّك تريد قتل عبد اللّه بن أبيّ في ما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدَّ فاعلاً فمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه فواللّه لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منّي، وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد اللّه بن أبيّ يمشي في النّاس، فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النّار"، فقال رسول اللّه ﷺ: ((بل نترفّق به ونحسن صحبته ما بقي معنا)).

وجعل بعد ذلك، إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه، فقال رسول اللّه ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: ((كيف ترى يا عمر؟ أما واللّه لو قتلته يوم قلت لي: اقتله لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته))، قال عمر: "قد واللّه علمت. لأمر رسول اللّه ﷺ أعظم بركة من أمري" (سيّد قطب، 1988، 6: 3576).

فنحن نلاحظ أنَّ العفو النبويّ عن هذا المنافق الحاقد الذي كان يطمع بالمُلك في قومه، قد استطاع أن يعمّق إيمان ولده عبد اللّه الذي بلغ القمّة في إخلاصه للّه ولرسوله وللمسلمين، كما استطاع أن يستوعب قومه الذين هالهم التحدّي الذي وجّهه هذا المنافق إلى الرسول ﷺ، فوقفوا وقفة واحدة ضدّه في هذا الموقف وأمثاله من المواقف المضادّة، لأنّهم قدّروا للرسول ﷺ عفوه عنه، مع قدرته على الانتقام منه، وهذا ما كان يهدف إليه الرسول ﷺ من خلال ذلك.

وهناك قصّة أخرى اتّخذ بها الرسول ﷺ الموقف الذي يمكن أن يقفه النّاس من الذين يملكون الضغط بالشر على النّاس، فيضطر النّاس إلى إكرامهم اتقاءً لشرّهم، **أنّ رجلاً استأذن على النبيّ ﷺ فلمّا رآه، قال:"بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة"، فلمّا جلس تطلّق النبيّ ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلمّا انطلق الرّجل، قالت له عائشة: يا رسول اللّه، حين رأيت الرّجل، قلت له كذا وكذا، ثم تطلّقت في وجهه وانبسطت إليه! فقال رسول الله ﷺ: "يا عائشة، متى عهدتني فحّاشًا، إنّ شرّ النّاس عند اللّه منزلةً يوم القيامة من تركه النّاس اتقاء شرّه"**

(البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الأدب، رقم: 6032)

(مسلم، **صحيح**، كتاب البرّ والصّلة والآداب، رقم: 2591)

ومن الملاحظ أنَّ النبيّ ﷺ قد شرّع المداراة لإتّقاء شرّ بعض النّاس ـــ مرحلياً ـــ عندما لا تكون الظروف ملائمة، وذلك من أجل ملاحظة بعض المصالح العامة التي قد تدخل في نطاق

استيعاب الواقع القلق، ومن خلال مراعاة بعض التوازنات فيه. وينبغي التّنبيه أنّ المداراة إنّما تكون في جوانب المعاملات لا العبادات.

ولعلّنا في دراستنا للأسلوب الحكيم الذي كان النبيّ ﷺ يمارسه مع النّاس جميعاً، نجد هذا الخطّ الحركيّ عنواناً بارزاً لكلّ حياته مع الآخرين، من دون أن يسيء ذلك إلى كلّ مواقف الحسم في الحالات الضروريّة، لأنّ مسألة المداراة لا تنطلق من موقع التنازل عن المواقف، بل تنطلق من مراعاة العناصر الضروريّة التي تحمي النتائج الحاسمة من الاهتزاز في الطريق، باعتباره يمثّل عمليّة احتواء النّاس وتقريبهم والحصول على محبّتهم بعيداً من كلّ التشنّجات والتّعقيدات التي تثير المشكلات وتعقّد الواقع .. وهذا ما ينبغي للعاملين في خطّ الدّعوة إلى الله، أن يفهموه عندما يخلط بعضهم بين النفاق وبين المداراة فيعتبر المداراة نفاقاً .. !!.

*** المعطيات الثامنة (قواسم مشتركة لاجتناب الصّدمة):**

التأكيد على مواقع اللقاء مع الآخرين في عمليّة الحوار، وفتح الآفاق الجديدة أمامهم، لاجتناب الصّدمة القويّة القاسية التي تجعلهم يهربون من السّاحة تماماً على أساس التشنجات النفسيّة السلبية، وذلك قوله تعالى:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾

(آل عمران: 64)

فقد أكّد القرآن في خطابه للتحاور مع أهل الكتاب نقطتين أساسيّتين من نقاط اللقاء الذي عبّر عنه بالكلمة السّواء، وهما: توحيد اللّه في العبادة ونفي الشريك عنه، وتوحيد الإنسانية في حقوقها من دون أن يكون الإنسان ربّاً لإنسان آخر، كأسلوب من أساليب التأكيد على المساواة في الإنسانية على كلّ المستويات، على أنّ التحاور والجدال بالأحسن، مع من يريد منهم الحسنى والحسن، باستثناء الجدال بالأحسن أولئك الظالمون، وقد ورد هذا المضمون في آية أخرى:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾

(العنكبوت:46)

هذه هي بعض المفردات النبوية في الفكر والدّعوة والسلوك التي كان لها الدور الكبير في قدرة النبيّ ﷺ على استيعاب النّاس وتأسيس المجتمع الإسلامي الأوّل بتحريك عناصر الدولة فيه، وإيجاد القاعدة للامتداد الإسلامي فيما بعد لكافّة الدّعاة من خلال الأسوة وتتبّع الخطّ.

ومع بساطة العقيدة في ميثاق الفطرة واستقامة الشّريعة لمصلحة الإنسان، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، بجانب العمل على تحويل الفرد من عدو خصيم إلى صديق حميم، بالأسلوب الحكيم، والخطّ العظيم من الوعي والإيمان.. كان هذا هو عنصر الفتح السّلمي بالإضافة إلى سنّة التّدافع الذي بدأ النّاس من خلاله يدخلون في دين اللّه أفواجاً.

خاتمة

إنّ الإسلام انتشر بقوّة مبادئه وفطريّتها، وإنّ معظم أنحاء العالم الإسلامي لم يصلها الفتح (الغزو) الإسلامي، وإنّه على الرّغم من ضعف المسلمين وعجزهم اليوم فلا يزال الإسلام يمتدّ وينتشر في العالم، من أدناه في السلّم الحضاري إلى أعلاه في الرّقيّ المادّي، الأمر الّذي يؤكّد خلود الإسلام واستجابته للمتغيّرات، وذلك بتقديم الرّؤى والحلول المناسبة لكلّ الأحوال الحضاريّة والإنسانيّة وإمكاناته الذّاتيّة في الانتشار؛ وإنّ المعوقات دون انتشاره قد تكون بسبب من المسلمين أنفسهم، الذين يقدّمون النّماذج المشوّهة والوسائل المعطوبة، التي تنفّر من الإسلام كلّ الذين يعجزون عن تجاوز الصّورة إلى الحقيقة، فالعالم اليوم يحتاج إلى النماذج التي تثير الاقتداء.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(الأنعام : 115)

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

البخاري، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل. 1998. **الجامع الصحيح**. اعتنى به: أبو صهيب الكرمي. الرياض. بيت الأفكار الدولية. ط 1.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. 1998. **صحيح**. الرياض: دار المغني & بيروت: دار ابن حزم. ط 1.

ابن هشام، أبو محمّد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري. د.ت. **السيرة النبويّة**. تحقيق وضبط وشرح وفهرسة: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي. بيروت: دار المعرفة.

ابن القيم، شمس الدين أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية. 2000. **زاد المعاد في هدي خير العباد**. تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤوط & عبد القادر الأرنؤوط. بيروت: مؤسسة الرّسالة. ط 3.

قطب، سيّد قطب. 1988. **في ظلال القرآن**. بيروت: دار الشروق.

المباركفوري، صفيّ الرّحمن المباركفوري. 1418. **الرّحيق المختوم**. الرياض: دار السّلام. ط1.

المباركفوري، صفيّ الرّحمن المباركفوري. 2000. **المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير**. الرياض: دار السّلام. ط 2.